العلم ضرورة إسلامية

خطبة الجمعة للدكتور محمود أبو الهدى الحسيني في جامع العادلية بحلب بتاريخ ٢٠٠٩/٣/٢٠م

لئن كان الناس يفردون يومًا لتكريم العلم والمعلم، فإن العلم في هويتنا الإسلامية جزء لا يتجزأ، فالإسلام لا يقبل الإنسان من غير علم، وهو الذي أخرج الناس من الجهل إلى العلم، وهو الذي دفع الناس من أجل أن يكونوا في العلم على كل المستويات...

لقد قرر القرآن الكريم في آية صريحة واضحة ينبغي أن يفهمها كلُّ إنسان يتأمل في هذا القرآن حين قال سبحانه وتعالى: { قُلْ } والمخاطَبُ سيدُنا محمدٌ صلى الله عليه وسلم صاحبُ الرسالة الذي نقل الناس من الظلمات إلى النور، { قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لا يَعْلَمُونَ } [الزمر: ٩]

هذا هو عنوان رسالتنا، التي أول كلمة نـــزلت فيها هي: { اِقْرَأْ } .

قال سبحانه: { قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لا يَعْلَمُونَ } .

فلم يكن عنوان رسالتنا: هل يستوي الذين يملكون والذين لا يملكون..

و لم يكن عنوان رسالتنا: هل يستوي الذين يحكمون والذين لا يحكمون..

و لم يكن عنوان رسالتنا: هل يستوي الذين يأكلون والذين لا يأكلون..

و لم يكن عنوان رسالتنا: هل يستوي الذين يضحكون والذين لا يضحكون...

إنما كان عنوان رسالتنا: { قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لا يَعْلَمُونَ } .

والذي نقل هذا العنوان الكبير إنما هو سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم، الذي قال الله سبحانه وتعالى له: { وَعَلَّمَكَ مَا لَمْ تَكُنْ تَعْلَمُ وَكَانَ فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكَ عَظِيمًا } [النساء: ١١٣] فمصدر العلم الذي نقله سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى البشرية كان مصدرًا إلهيًّا، فعلّمنا رسول الله صلى الله عليه وسلم بعلم الله.

وقال الله سبحانه وتعالى وهو يصف هذا القرآن العظيم الذي نقله إلينا سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم: { وَلَقَدْ جِئْنَاهُمْ بِكِتَابٍ فَصَّلْنَاهُ عَلَى عِلْمٍ } [الأعراف: ٥٢].

ونهى الإنسان أن يتبع في حياته غير الطريق الذي يستند إلى العلم وينطلق من العلم ويسير على صراط العلم، حين قال سبحانه وتعالى: { وَلا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ } [الإسراء: ٣٦].

هذه هي رسالتنا: { وَلا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ } .

فنحن لا نتبع في مسلكنا وفي منهجنا وفي معاملاتنا وفي حياتنا... إلاَّ ما يمليه العلم.

فإذا كان الإنسان على جهل فإن عليه أن يعلم قبل أن يعمل، فلا يقبل الإسلام عملاً لا يستند إلى العلم، ولا يقبل الإسلام من الإنسان أن يسير في طريق لا ينطلق من العلم.

وبعد هذا نجد في السنة المطهرة أن المصطفى صلى الله عليه وسلم يقول في حديث نبوي شريف:

(أَلا إِنَّ الدُّنْيَا مَلْعُونَةٌ مَلْعُونٌ مَا فِيهَا إِلا ذِكْرَ اللَّهِ وَمَا وَالاهُ)، وفي رواية: **(إِلا ذِكْرُ اللَّهِ وَمَا وَالاهُ وَعَالِمٌ أَوْ مُتَعَلِّمٌ)** وحينما يتبنى النبي صلى الله عليه وسلم مبدأً ينقله إلينا ويريد منّا أن نتبناه.

أي: أَلا إِنَّ الدُّنْيَا المادية بكل زينتها ومتعها لا قيمة لها إلا حينما تنطلق من ذكر الله ومن العلم، فذكر الله سبحانه وتعالى يُعطي للمادة قيمتها، فتنسب إلى الله بدلاً من أن تنتسب تلك المادة إلى المادة، وعندما يوجد مع المادة ذكر الله نقرأ المادة على أنها زينة الله: { قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللَّهِ } [الأعراف: ٣٢].

هكذا يَقلب ذكرُ الله المادة ويقلب الاعتبار، وشتان بين من يعيش في المادة من غير ذكر الله فيرى المادة مادة، ومن يعيش في المادة بعلم وذكر، فذكر الله تبارك وتعالى يقلب المادة ليجعلها زينةً منسوبة إلى الله سبحانه: { قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللَّهِ الَّتِي أَخْرَجَ لِعِبَادِهِ } [الأعراف: ٣٢].

وهكذا يتميز أهل الإيمان في المادة عن أهل المادة في المادة، فذكر الله يحضر القلوب حينما تكون الأبدان في المادة، لتعيش تلك الصلة بين المادة وخالقها.

والعلم يُحضر قلب المسلم **أولاً مع العلم بالله**، فالماديّ الغافل ليس عنده من العلم بالله شيء، فهو يعيش بين المملوكين ولا يدري شيئًا عن مالكهم، إنه يعيش في الكون لكنه مقطوع عن ربّ الكون وخالقه ومالكه، فأول شيء يكون عند المسلم من العلم:

العلم بربّ الكون: الذي يعطي الإنسان المسلم في الكون أينما تحرك صلةً بمحرِّك الكون سبحانه وتعالى، فلا يعيش مع المُحرَّك فقط، إنما يلحظ بقلبه محرِّكَه.

العلم بالله الذي مصدره الوحي، ولا يمكن للبشرية أن تمتلك العلم حتى تفهم الوحي وحتى تتفاعل معه، وعندما تكون البشرية منقطعة عن الوحي فإنها ستكون منقطعة عن العلم بالله أولاً، وما قيمة إنسان يتوهم أنه عالم، ويتوهم أنه يملك العلم، وهو لا يملك المعلومة الكبرى التي هي العلم بمحرك الكون؟!

ما قيمة هذا الإنسان عندما يتعامل مع النبات، ويتعامل مع الحيوان، ويتعامل مع بدن الإنسان، ويتعامل مع سنن الكون... لكنه يجهل جهلاً تامًّا الذي وضع تلك السنن وخلق ذلك الكون وأخرج ذلك النبات، وأخرج بحكمته وقدرته عجائب آيات كونه في الإنسان والحيوان والشجر والحجر؟!

العلم بالله يورث الإنسان ليس مجرد العلم ليكون العلمُ للعلم، إنما ينتج أثرًا عمليًّا، فلا يكون كما يقال **"براغماتيًّا"** لا يوظف المعلومة في أثرها العمليّ، إنما العلم بالله عندما نتحدث عنه فإنه يورث الانضباط في السلوك، ويورث الإيمان، ويورث الأخلاق، ويورث الرقابة التي غابت اليوم عن مجتمعاتنا الإسلامية...

العلم بالله تنتفي معه الجرائم، وتنتفي معه الرشوة، وتنتفي معه الانحرافات السلوكية التي تتصاعد يومًا بعد يوم في مجتمعاتنا الإسلامية: { إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ } [فاطر: ٢٨].

ومجتمعٌ يحكمه القانون الوضعيّ ولا تكون فيه حالة الخشية، مهما كان القانون مطبَّقًا - هذا فيما لو طُبِّق القانون - فإنه لن ينفذ إلى جزئيات حركات الإنسان.

فالإنسان لا يمكن أن يُضبط - وهو مخلوقٌ في غاية الذكاء، يستطيع أن يُوجِد آلاف الحِيَل التي يتمرد من خلالها على القانون - حتى يكون في قلبه العلم بالله، فإذا وجد في قلبه العلم بالله عند ذلك لابد أن يظهر الأثر السلوكيّ لذلك العلم بالله، وسيظهر بعد ذلك نظيفًا في أخلاقه، ونظيفًا في معاملاته، لأنه يخشى، ولأنه يحسب حسابًا لربّ الكون.

والذين يعيثون اليوم فسادًا في الأرض لو كانت الخشية في قلوبهم لما حصل فيهم ما حصل.

هناك أزمة، وهي أزمة انعدام العلم بالله التي أورثت عبثية وعشوائية وفوضوية اجتماعية..

وبعد هذا فإن الإسلام الذي يَعتبر العلم ضرورةً إسلامية بعد العلم بالله يطلب من المسلم علمين اثنين:

علمٌ بسنة الله سبحانه وتعالى في الكون، وعلم بسنة الله التي تنظم سلوك الإنسان.

العلم بسنة الله سبحانه وتعالى في الكون:

أجرى الله سبحانه وتعالى سنةً لا تجد لها تبديلاً ولا تحويلاً، هي سنن الكون التي وضع الله نظامها وأمر المسلم أن يتعرف إليها.

سنة الله سبحانه وتعالى التي مثالها:

- أن اجتماع ذرتين من الهيدروجين مع ذرة من الأوكسجين ينتج ماءً تكون منه الحياة:

{ وَجَعَلْنَا مِنَ الْمَاءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ } [الأنبياء: ٣٠].

- أنّ الحياة تنبعث من الماء سنة من سنن الله.

- أن بدن الإنسان يحتاج إلى هواء نظيف ويحتاج إلى ماء نظيف.

- أن وجود الأشجار على كوكب الأرض يحسّن حياة الإنسان لأنه جزء من دورة تنفسية.

- أن الملوثات التي يطلقها الإنسان من غير تفكر في مآلها ومصيرها سوف تخرب الحياة على الأرض.

- التوازن في الحياة على مستوى النبات، وعلى مستوى الحيوان، وعلى مستوى حياة الإنسان، وعلى مستوى ما يكون خارج أقطار السماوات والأرض: { يَا مَعْشَرَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ إِنِ اسْتَطَعْتُمْ أَنْ تَنْفُذُوا مِنْ أَقْطَارِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ فَانْفُذُوا } [الرحمن: ٣٣].

الإسلام عوَّدنا المرونة، وعوَّدنا أن نبقى في بحث وتأمل ونظر: { الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ طِبَاقًا مَا تَرَى فِي خَلْقِ الرَّحْمَنِ مِنْ تَفَاوُتٍ } [الملك: ٣].

إنه يريدك أن ترى، ويريدك أن ترجع البصر: { ثُمَّ ارْجِعِ الْبَصَرَ كَرَّتَيْنِ } [الملك: ٤].

إنه يريد لك أن تنظر، وأن ترى، وأن تبصر، وأن تبحث، وأن تمشي...

{ فَامْشُوا فِي مَنَاكِبِهَا } [الملك: ١٥]

{ أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَا } [الحج: ٤٦]

نعم إنه يأمرنا أن نسير وأن نتحرك، لأن الجمود لا يتناسب مع الإسلام، فالجمود يعني هيمنة العادة والمألوف على فكر الإنسان، لكن الحركة تولد في الإنسان تدبُّرًا وتأمُّلاً...

وهكذا فإن الإسلام يطلب من الإنسان أن يتعرف إلى سنن الله في الكون.

أين نحن في عالمنا الإسلاميّ من المعرفة بسنن الكون؟

هل تفوَّقَتْ جامعاتُنا على جامعات المادية؟ هل تفوقت في بحثها؟

هل أوجدنا مراكز البحث العلميّ المتفوقة على مراكز الآخرين أم أننا ننشغل بالصراعات؟!

لقد خرجت ألمانيا مهزومة، وخرج اليابان مهزومًا، فهل اشتغل في صراع الإيديولوجيات، أم أنه دخل إلى المختبر حتى أصبحت صناعاته تصارع أعظم الصراعات العالمية؟

وبقينا يسفِّه بعضُنا بعضًا، ويخطِّئ بعضُنا بعضًا، ونقتتل ونختصم ونعطل الحركة الفعلية المنتجة، وكلٌّ منّا يقدم نفسه على أنه الأعلم، وعلى أنه الأقدر، وعلى أنه الأقرب إلى المعاصَرة، وعلى أنه الأقرب إلى العلمية، وعلى أنه التقدُّميّ وغيره رجعيّ...

وهكذا بقينا نرجع خطوة ثم خطوة يقيِّد بعضُنا بعضًا.. نقيد الكلام ونقيد الأفعال ونربط أعضاء الإنسان حتى لا يتحرك.

هذا هو واقعنا في عالمنا الإسلاميّ، في نفس الوقت الذي كان فيه غيرُنا يتحرك بالبحث ويقدّم المكافآت للذين ينطلقون في البحث ويرتقون في العلم.

إذًا: نحن نتناقض مع إسلامنا، لا كما يقول بعض الجاهلين: "إن إسلامنا هو الذي أخَّرنا"، لا، فإسلامنا يدعونا إلى التقدم، لكننا ننشغل عن رسالتنا الإسلامية الحقيقية ونُتقن صناعة الكلام.

وحينما نتفوق في معرفة سنن الكون نحكم الكون، وحينما نتراجع عن البحث في سنن الكون يحكمنا الجاهلون الماديون، ويحصل ما يحصل اليوم من سياسة القطب الواحد كما يقولون، وتحرِّك اليهوديةُ العالَمَ في عبثية وفوضوية ومصلحية يتميز فيها الأقوياء عن الضعفاء، وتتميز فيها دول الشمال عن الجنوب.

نعم، تأخرنا عن معرفة سنن الكون، وما نـــزال إلى هذا الوقت من أجل المصالح الشخصية نحجّر ونوجد آلاف القيود وآلاف المعيقات التي تعيق حركة التقدم على كل المستويات البحثية والعلمية والثقافية..

إذًا:

العلم الأول: العلم بالله، الذي يوجد الإيمان، ويوجد بعد ذلك أثرًا سلوكيًّا ونظافة في المجتمع.

العلم الثاني: العلم بسنن الكون.

العلم الثالث: العلم بسنة الله التي تنظم سلوك الإنسان.

الكون كله مضطرّ، ويجري بقدرة الله تبارك وتعالى، لكن الإنسان مزوَّدٌ بالاختيار، وهذا الاختيار الذي يشعر الإنسان به يجعله قادرًا على أن يسير موافقًا لسنة الله سبحانه وتعالى الإنسانية ومخالفتها.

لقد زود الله سبحانه وتعالى الإنسان بعنصر الاختيار، أما الشمس فلا تستطيع أن تغير مسارها، وكذلك القمر لا يقدر أن يغير مساره، والنجوم لا تقدر أن تغير مسارها، والماء الذي يصعد من جذر الشجرة إلى أعلاها لا يقدر أن يغير مساره، والتفاحة التي تنضج في شجرة التفاح لا يمكن أن تتأخر يومًا واحدًا عن موعد نضجها، والأسماك التي تبيض في مكان وتتناكح في مكان آخر وتسير عبر مسار نهري أو بحري لا يمكن لها أن تغير ذلك... أما الإنسان فإن الله سبحانه وتعالى أعطاه الاختيار، وجعله قادرًا على التردد في مساحة كبيرة، بين **أحسن تقويم** و**أسفل سافلين**، قال تعالى:

{ لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ، ثُمَّ رَدَدْنَاهُ أَسْفَلَ سَافِلِينَ } [التين: ٤-٥]

فهو مخلوق ذكيّ عبقريّ مزود بالاختيار، ويقدر على التنقل بين منـــزلة **أحسن التقويم** التي هي السيادة على الكون من خلال سنة إنسانية وضعها ربّ الإنسان، من خلال سلوك علّمه الله الإنسان وقال له: هذه هي سنتي فيك التي من خلالها تحافظ على منـــزلة أحسن التقويم، لكنك باختيارك تقدر على الهبوط حتى تكون **أضل من الأنعام**: { أُولَئِكَ كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ } [الأعراف: ١٧٩].

فجاء العلم الثالث الذي هو العلم بسنة الله في الإنسان، الذي من خلاله يتعلم الإنسان كيف يعيش، وكيف تكون معاملاته...

تقول الدراسات الحديثة كما أخبرني صديق من خلال الاطلاع على تقرير علمي: إن تبول الإنسان قاعدًا يرفع درجة الخصوبة في الإنسان، لكن تبوله قائمًا يقلل من خصوبته الجنسية.

هذا من خلال دراسات إحصائية تخرج بها أعلى المراكز البحثية.

ويأتي الإسلام بدون مختبرات إنما بعلم الله ليقول للإنسان: أكره أن تبول قائمًا، ويأتي الحكم الشرعي الذي يقول للمسلم: تبول قاعدًا.

فالإنسان لا يتحدث عن حركة الإنسان في الصناعة فقط وهو يدعو إلى الصناعة، بل ويدعو إلى نشر علوم الصناعة، يقول صلى الله عليه وسلم: **(تعين صانعًا أو تصنع لأخرق)** كما في الحديث الصحيح في صحيح مسلم.

"تعين صانعًا" وهذا من أفضل الأعمال التي تتقرب بها إلى الله.

"أو تصنع لأخرق" أي جاهل لا يتقن الصناعة، فتصنع له ليتعلم كيف يصنع.

والإسلام لا يدعو فقط إلى متابعة الزراعة، فلو أن الساعة قامت وفي يد الإنسان فسيلة يريد أن يزرعها عليه أن لا ينتظر قامت الساعة أم لا، بل عليه أن يزرع.

ولن أتطرق إلى أثر الزراعة في تخفيف الزلازل (والساعة زلازل)، ولن أتحدث عن الأثر السلوكيّ لغرس الفسيلة، لكنني أقول إن الإسلام اعتنى بمعاملة الإنسان مع الأرض، وقال: **(من كانت له أرض فليَزرعها، فإن لم يَزرعها فليُزرِعها)**.

إنه يريد الأرض متفاعلة مع الإنسان، ويريد الإنسان متفاعلاً مع الأرض، فهو لا يتحدث فقط عن صناعة وزراعة وتجارة... ولا يتحدث فقط عن إيجاد النفع أينما كان، لكنه يضع عنوانًا: **(من استطاع منكم أن ينفع أخاه فليفعل)** إنها قاعدة عامة، فإذا استطعت أن توجِد طريقةً ما لنفع الآخرين أوجِدْها، لأنه يعلمك أن تنفع الآخرين لا أن تكون سبب إضرارهم: **(لا ضرر ولا ضرار)**.

هذه قواعد سلوكية إنسانية ليرتقي الإنسان، لكنه يعلمك حتى في عاداتك كيف تبول، وكيف تشرب: هل تشرب قائمًا أم قاعدًا؟

والذي يفهم بعد هذا لا ينتظر أن تأتي نتيجة المختبرات لتقول: إن الشرب قائمًا يولد في الإنسان الأمراض الآتية، وإن التبول قائمًا يولد في الإنسان العلل الآتية، لكنه ومن خلال ثقته بالمعلمِ الذي هو الله، والناقلِ الذي هو محمدٌ رسول الله، الذي هو سيد المعلمين من المخلوقين، يلتزم الأمر من غير انتظار الحكمة، فالمعلم الحقيقيّ هو الله، وسيد المعلمين في المخلوقين هو سيدُنا محمد عليه الصلاة والسلام، الذي قال: **(إنما بعثت معلمًا)** وذلك حين خرج النبي صلى الله عليه وسلم ونظر في المسجد فوجد حلقة جلسوا فيها يقرؤون القرآن ويدعون الله، وحلقة فيها تعلّم وتعليم، فقال كما في الحديث الذي يرويه ابن ماجة في سننه والدارمي فيقول: **(هؤلاء يقرؤون القرآن ويدعون الله، فإن شاء أعطاهم وإن شاء منعهم، وهؤلاء يعلّمون ويتعلّمون، وإنما بُعثتُ معلِّمًا، فجلس معهم)**.

إنه صلى الله عليه وسلم بهذا السلوك يفرِّق بين مجلس العبادة ومجلس العلم، ويقول: أنا أجلس في مجلس العلم، و لم يُلْغِ مجلس العبادة، لأن مجلس العبادة مدعِّم، أما مجلس العلم فهو مؤسِّس، فمجلس العلم مؤسِّس ومجلس العبادة مدعِّم، فجلس مع المجلس المؤسِّس.

متى إذًا نفهم أن الإسلام عندما يقدم المعلومة في نصٍّ قرآنيّ أو حديثٍ صح عن سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم، فإنه يعلِّم من خلاله الإنسانَ سلوكًا ما؟

متى نفهم أنها السنة الربانية في الإنسان التي يرتقي الإنسان من خلالها؟

لا اجتهاد في مورد النص، فإذا ورد النص يخرس الناس.

واليوم هناك من يتنطع ويناقش في النص.

أيها الجاهل، ما كان لك أن تحاور أو تناقش نصَّ العليم العلام، فالنصُّ في القرآن هو نصّ العليم العلام، والنصّ في حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم إنما هو وحي العليم العلام: { وَمَا يَنْطِقُ عَنِ الْهَوَى، إِنْ هُوَ إِلا وَحْيٌ يُوحَى } [النجم: ٣-٤] إنها سنة الله في الإنسان.

وهكذا يكون العلم في حياتنا في المنظور الإسلاميّ ضرورةً، فيقدِّم **العلم بالله** الذي يورث نظافة السلوك والخشية، ويقدِّم **العلم بسنة الله في الكون** فمَن ملكها يتفوق في الكون، ويقدم **العلم بسنة الله في الإنسان**، ومن خلال هذه السنة يزرع ولا يقطع، وحذّر حتى في الحرب أن يكون الإنسان ممن يقطع الشجرة أو يقتل الطفل.. إنها سنة الله في الإنسان.

هذه العلوم الثلاثة: العلم بالله، والعلم بسنة الله في الكون، والعلم بسنة الله في الإنسان، يقدّمها الإسلام، فهل يقدِّم غيرُ الإسلام هذه الأنواع الثلاثة في العلم؟ وهل يدعو غيرُ الإسلام إلى هذه الأنواع الثلاثة من العلم؟

وبهذه الأنواع الثلاثة تكون المجتمعات الإسلامية - إن هي تحققت بهذه الأنواع الثلاثة و لم تفرط بنوع واحد منها - متفوقة على العالم، لكن ماذا نفعل عندما نتحدث ولا يكون الحديث مسموعًا؟

ماذا نفعل عندما نتحدث ويُراد لنا أن لا يسمع منّا ما نتحدث؟

ماذا نفعل إذا كان الذي يُسمع في الغالب على مستويات الإعلام العالميّ وما يسمى بالإعلام الإسلاميّ غثّا لا سمينًا، ومواعظ لا تؤسس لحضارة...؟

يُسمع القرآن تلاوة، لكن هل يُسمع دراية؟

أين هي المراكز الإعلامية التي تعتني بالدراسات القرآنية دراسةً واعيةً فاهمة؟

إذًا: المسؤولية عليكم كبيرة، وهي لا تنحصر في من يضع عمامة، فنحن أمة ليس فيها مصطلح "**رجال دين**" فذلك هو لغيرنا، فنحن أمة كلُّ فردٍ فيها رجلُ دين، وكل فرد فيها مكلَّفٌ بتبليغ الدين، رجلاً كان أو امرأة، كبيرًا أو صغيرًا...

نحن أمة علَّمها الله سبحانه وتعالى أن الذرائع التي يمكن للإنسان أن يتذرع بها لا قيمة لها عند الله.

واليوم كلٌّ منّا يتذرع بذرائع ويعتذر بمعاذير، ويلغي السلوك الأقوم بسبب تلك المعاذير، ولابد أنه يومًا من الأيام سيقف أمام الله وحده، وسيحاسَب وحده:

قال تعالى: { بَلِ الإِنْسَانُ عَلَى نَفْسِهِ بَصِيرَةٌ، وَلَوْ أَلْقَى مَعَاذِيرَهُ } [القيامة: ١٤-١٥].

وقال سبحانه: { وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى } [الأنعام: ١٦٤].

وقال: { يَوْمَ يَفِرُّ الْمَرْءُ مِنْ أَخِيهِ، وَأُمِّهِ وَأَبِيهِ، وَصَاحِبَتِهِ وَبَنِيهِ } [عبس:٣٤ - ٣٦].

فهل تنفع المعاذير؟

لماذا لم يعتذر سَحَرَةُ فرعون عندما أعلنوا أنهم سيطيعون الله سبحانه وسيوافقون سنة الله سبحانه في الإنسان؟ وقالوا يومها لفرعون: { لَنْ نُؤْثِرَكَ عَلَى مَا جَاءَنَا مِنَ الْبَيِّنَاتِ وَالَّذِي فَطَرَنَا فَاقْضِ مَا أَنْتَ قَاضٍ إِنَّمَا تَقْضِي هَذِهِ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا } [طه: ٧٢].

متى نفهم أن سلوك الإنسان ينبغي أن يتوافق مع السنة الربانية في الإنسان حتى لو كان هذا على حساب موته، لكنه يعلم أن موته لا يعني في منظوره الإسلاميّ نهايةَ المطاف.

هكذا نستطيع أن نتخلص من المعاذير، ونستطيع أن نتخلص من العُقد، ونستطيع أن نتحرر من أوهامنا ونلقي جانبًا أعذارَنا ونلتزم منهج العلم بالله ومنهج العلم بسنة الله في الكون.

قال لي أحد الإخوة الذين يعتنون بتربية الناشئة والأطفال: بأيِّ المراجع التي نحيل إليها أطفالنا تنصحُنا؟

وكنت أعلم أنه يتوقع مني أن أقول: كتاب الفقه الفلاني، أو كتاب السيرة الذي كتبه العالم الفلاني.

لكنني قلت له: الموسوعات المعرفية التي توسّع ذهن الطفل من أجل أن يتعلم ما هو موجود من سنن الله الكونية في الشجر، وفي الحجر، وفي الجغرافيا، وفي التاريخ...

ينبغي أن ينفتح ذهن أطفالنا على سنن الله الكونية، حتى إذا ما سألته عن بدهيات كيميائية أو فيزيائية أو جغرافية أو تاريخية... يكون لديه ذلك حاضرًا، وعندها وبعد معرفة سنة الله سبحانه في الكون، وأنت تعلمه سنة الله في الإنسان، سيكون أوسع من الكون.

ولم ألحظ عناية المساجد بهذا، فغاية ما تعتني البيئة الإسلامية به إنما هو الموعظة والتوجيه العام، فلا تعتني بالتعريف الذي هو أساس اتساع هذا الإنسان الذي هو رجل المستقبل، والذي يُطلب منه أن يكون أوسع من الكون، فكيف يكون أوسع من الكون وهو لا يعرف الكون؟

كيف يُطلب منه أن يكون أوسع من الكون وهو لا يعرف سنة الله في الكون؟

وأنا أُفاجأ عندما أسأل الأطفال اليوم وأقارن المعلومات التي كنّا نعرفها ونحن أطفال، فقد كانت معلومات كبيرة، لأننا كنّا نقرأ، وكنّا نبحث ونحن أطفال... فما الذي حصل؟

إذا لم تكن هذه العلوم الثلاثة هي الخطوط العريضة لتنشئة الأطفال، ولتدعيم الشباب، ولإصلاح المجتمعات... فلا فائدة.

رُدَّنا اللهم إلى دينك ردًّا جميلاً، واجعلنا ممن يستمعون القول فيتبعون أحسنه.

أقول هذا القول وأستغفر الله.